المرحلة الأخيرة من حكم دولة الخلافة العباسية

٥٩٠ ـ ٦٥٦ هـ/ ١١٩٤ ـ ١٢٥٨ م

الدول الأتابكية ـ الشاهات ـ المغول

نتيجة لضعف السلاجقة، برزت في أواخر عهدهم ظاهرة قيام دول منفصلة على حسابهم، دارت في فلك دولة الخلافة العباسية، عرفت بالدول الأتابكية، وهي ذات أصول تركية. (أتابك: كلمة تركية مركبة من كلمتين، أتا: مربي، بك: أمير، ومعنى الكلمة: مربي الأمير).

نشأ الأتابكة في البلاط السلجوقي نتيجة للنظام الذي استحدثه السلاجقة القائم على شراء المماليك الأتراك، وإدخالهم في خدمة القصور السلطانية، خاصة فيما يتعلق بتربية أبنائهم، بالإضافة إلى تولي الوظائف العامة.

وترقى هؤلاء في المناصب الإدارية والعسكرية حتى وصلوا إلى المناصب القيادية واتخذوا من نشوب النزاعات داخل البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه الأول، فرصة لفرض سيطرتهم على المناطق التي تحت حكمهم. وتسابقوا في توسعة رقعتها كل على حساب الآخر. وبذلك نشأ نزاع أتابكي داخلي سار في خط مواز للنزاع السلجوقي الداخلي.

أشهر هذه الأتابكيات: كيفا وماردين ودمشق ودانشمند والموصل والجزيرة وأذربيجان وفارس.

وقامت إلى جانب الأتابيكات دول أخرى، نتيجة تولية السلاطين السلاجقة نواباً لهم في الأقاليم التي كانت تحت حكمهم، فاستأثر هؤلاء النواب بحكم هذه الأقاليم وأورثوها أبناءهم، وقد تلقبوا بـ «الشاهات». أشهر هؤلاء الشاهات: شاهات خوارزم وشاهات أرمينيا.

وهكذا ورثت الدول الأتابكية وشاهات خوارزم أملاك السلاجقة، مما مهد السبيل لقيام مرحلة استقل فيها الخلفاء العباسيون، واستردوا ما كان لهم من سلطات، كما أتاح هذا الضعف والانقسام للغرب الأوروبي الفرصة لشن الحروب الصليبية ضد البلاد الإسلامية من جهة، ودفع المغول لاجتياح العالم الإسلامي في أقاليم بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق من جهة ثانية، فدمروا بغداد وقضوا على دولة الخلافة العباسية.

ولما كان سقوط هذه الدولة قد تم على أيدي هؤلاء المغول، فلا بد من أن نلم إلمامة وجيزة بتاريخ هذا الشعب قبل أن نتحدث عن ظروف سقوط دولة الخلافة العباسية.

نشأة المغول

الواقع أن ظروف خروج المغول من موطنهم الأصلي في جوف آسيا باتجاه العالم الإسلامي، له علاقة بالمدى الذي وصلت إليه العلاقات بينهم وبين الدولة الخوارزمية. فما إن انبثق فجر القرن السابع الهجري، حتى شهد العالم الإسلامي اندفاع الجيوش المغولية الجرارة من شمالي شرقي آسيا على دفعات متقاربة ومتباعدة، وكان لها أثرها القريب والبعيد من النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية.

لم يكن المغول إلاّ مجموعة من القبائل الرحل، نشأت في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء غوبي. وعاشت على روافد نهر آمور، وسيطرت على الأراضي الواقعة بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال كانكان على حدود منشوريا في الشرق[1].

نبغ من بين أفراد المغول تيموجين الذي اختارته القبائل المغولية زعيماً عليها، واتخذ اسم جنكيز خان أي قاهر العالم. وقد أنشأ إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت من بلاد الصين شرقاً حتى حدود العراق وبحر الخزر وبلاد الروس غرباً، وبلاد الهند جنوباً.

ظروف توسع المغول باتجاه العالم الإسلامي

في هذه الأثناء، حلّ الخوارزميون محل السلاجقة في حكم المناطق الشرقية من العالم الإسلامي، في بلاد ما وراء النهر وخراسان وإيران، وراح زعماؤهم يتدخلون في شؤون الخلافة العباسية حتى عزموا الاستيلاء على بغداد[2].

---

(١) الجويني، عطا ملك: تاريخ قاهر العالم جـ ١ ص ٦٠.

(٢) المصدر نفسه: جـ ٢ ص ٢٩ ـ ٣٠.

فقد طمع علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي خلف أباه تكش في تحقيق هذه الرغبة، وانتزاع السلطة من يد الخليفة العباسي الناصر[١]. إلاّ أنه اضطر إلى التراجع تحت الضغط المغولي الذي أخذ يجتاح بلاده، بالإضافة إلى مضايقة الأمراء له[٢].

وكان من أثر تفاقم الخلاف بينه وبين الخليفة، أن أقدم هذا الأخير على الاستعانة بالمغول ليشغل بهم السلطان الخوارزمي حتى يأمن شره ويبعده عن العراق[٣]. فكتب إلى جنكيزخان يحثه على العبور إلى البلاد الإسلامية ووعده بالتعاون معه لضرب الخوارزميين[٤].

لكن رغم وصول هذه الرسالة إلى المغول، فإنها لم تكن السبب في غزو جنكيزخان للدولة الخوارزمية. إذ في الوقت الذي وصلت فيه رسالة الخليفة، كان الزعيم المغولي قد توسع في فتوحاته نحو الغرب حتى تاخمت حدود بلاده حدود الدولة الخوارزمية، واستطاع أن يعقد معاهدة تجارية مع الخوارزميين. ولذلك لم يُعر رسالة الخليفة أي التفاتة[٥].

ويبدو أن الكارثة كانت آتية، لكن سببها المباشر يعود إلى إحدى هذه البعثات التجارية، حين أرسل جنكيزخان قافلة تجارية إلى غربي آسيا للتجارة في الأسواق الخوارزمية. ولما وصلت إلى مدينة أوترار الواقعة على نهر سيحون. أجهز أينال خان، حاكم المدينة، عليها وقتل جميع أفرادها وسلب البضاعة[٦].

لم يكن بوسع جنكيزخان أن يتغاضى عن هذه الإثارة خاصة بعد أن رفض السلطان طلباً له بتسليمه حاكم أوترار. فجهزّ جيشاً جراراً وهاجم الأراضي

---

(١) لقد جالت في نفس هذا السلطان فكرة إقامة خلافة علوية مكان الخلافة العباسية، والجدير بالذكر أنه كان يعتنق المذهب الشيعي. راجع فيما يتعلق بأسباب طمع السلطان الخوارزمي ببغداد: حسين، محمد عبد الباسط عبد الهادي محمد: الشرق الإسلامي من ظهور السلاجقة حتى زوال دولة الخلافة العباسية ببغداد. ص ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) إقبال: ص ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٣) ابن الأثير: جـ ٩ ص ٣٦١.

(٤) Lamb. H: Jengkis khan: P 116

(٥) Curtin: The Mongols: P 99.

(٦) النسوي: سيرة جلال الدين منكبرتي: ص ٨٦.

الخوارزمية. فسيطر على إقليم ما وراء النهر في عام (٦١٧ هـ/ ١٢٢٠ م) وسقطت العاصمة الخوارزمية في يده[١].

وتوفي علاء الدين في إحدى جزر بحر قزوين في عام (٦١٨ هـ/ ١٢٢١ م) فاراً من وجه المغول[٢] الذين استولوا على خراسان. وفي عام (٦١٩ هـ/ ١٢٢٢ م) غادر جنكيزخان الأقاليم الغربية بعد أن ثبّت حكم المغول في إقليمي ما وراء النهر وخراسان بشكل نهائي[٣].

---

(١) انظر أحداث سقوط بلاد ما وراء النهر عند الجويني: جـ ١ ص ١١٠ ـ ١٣٥.

(٢) النسوي: ص٢٣.

(٣) العريني: السيد الباز: المغول ص ١٤٢.